القناص، الجنون الانتحاري و 'صدام الحضارات'!

15-10-2002

محمد اسماعيل

يفترض "سذاجة" أن حياة و أمن الأمريكيين في بلدهم أولى و "أغلى" من أية حقوق أو حريات دستورية يحتمى بها للحفاظ على مصالح و امتيازات مادية و سياسية بحتة. و رغم ذلك لم تتجرأ شبكة تلفزيونية واحدة على إثارة المسألة بسبب ثقل المصالح المالية و السياسية التي يمثلها عرابو شبكة شركات تصنيع الأسلحة و وكلاء الاتجار بها. و نشهد مقابل ذلك "شطارة" القنوات الأمريكية عندما يتعلق الأمر بالدوس على حقوق و حريات و كرامة العرب و المسلمين و مؤسساتهم في أمريكا، إذ يوضع كلهم في "وعاء" تنظيم القاعدة و "المتطرفين السلفيين"...غير أن "فاقد الشيء" الذي يتملص من مسؤولية حماية رعاياه فوق أرضهم سيجد مبررات لتوبيخ السلطات الأندونيسية و اليمنية و غيرها من الحكومات في العالم الإسلامي

بقلم محمد اسماعيل

السنايبر" أو "قناص" واشنطن الذي ينشر الرعب منذ التاسع من أكتوبر الجاري في المناطق المحيطة بالعاصمة الفدرالية الأمريكية لم يوصم ب"الإرهاب" بعد بالرغم أنه أسقط ضحيته رقم 9 ليلة الإثنين بالطريقة نفسها التي تكررت إحدى عشرة مرة: القتل المجاني دون تمييز واضح بين الضحايا الذين يشكلون فريسة سهلة للقاتل. رصاصة واحدة خارقة من بندقية حرب تطلق من على بعد نحو مائة متر من "الهدف".

في فنلندا، البلد الاسكندنافي الذي "كان" اسمه مرادفا للأمن و الطمأنينة عايش الجمعة الماضية حادث رعب كان يظنه أهله بأنه لا يحدث سوى عند "الآخرين". شاب طالب في الكيمياء حسب الشرطة المحلية نفذ تفجيرا "انتحاريا" داخل مركز تجاري كبير في ضاحية العاصمة هلسينكي، فقتل معه ستة أشخاص على الأقل و أصاب حوالي ثمانين آخرين بجروح.

و في مدينة تورينو حيث رمز رخاء و "حداثة" الشمال الإيطالي أطلق حارس سابق النار على زوجته السابقة و ستة أشخاص آخرين فأرداهم قتلى صباح يوم الثلاثاء قبل أن ينتحر. و استعمل "الانتحاري" أربعة أنواع من الأسلحة لارتكاب المجزرة دون أن يكشف عن أسباب فعلته، إذا حصل و أن عرفت في يوم ما.

جنون القتل و الاغتيال الانتحاري تبقى تحدث يوميا في الغرب لكنها لا "تستهوي" الدوائر السياسية رغم الرعب الذي تخلفه على الأقل بين سكان المنطقة المجاورة التي تحدث فيها. و تتزايد "حظوظ" التقليد الإجرامي في وسط شريحة شابة تواجه الفراغ الروحي يقابله "بذخ" اللهو و الانحراف، بينما توفر شبكة الانترنت مجالا سهلا لتعلم فنون الإجرام و أساليب "الدمار الشامل"! لكن الموضوع يحتاج إلى خبراء اجتماعيين و علماء نفسانيين ينطلقون من القاعدة الروحية و الفكرية للآفة. و ما يهمنا في هذا المقام ما يجري في الولايات المتحدة لأن خلفياته و تداعياته لها جوانب "سياسية" واضحة.

ف"قناص" واشنطن امتلك خبرة الرماية إما كونه عسكريا سابقا من فئة القوات الخاصة "القناصة"، أو أنه من بين ملايين الأمريكيين "الموهوبين" في فن الرماية الأعضاء في نوادي التدريب على السلاح المنتشرة في كل مكان. و في أمريكا عدد قطع السلاح المتداولة بين أيدي الأمريكيين تقارب عدد سكان الولايات الخمسين، أي نحو 200 مليون قطعة سلاح حسب مختلفة المصادر الفدرالية!

و أفادت مصادر التحقيق في جرائم "قناص واشنطن" بأن عدم سن قانون يفرض على بائعي الأسلحة الختم على أية ذخيرة تباع بختم خاص يدل على رقم قطعة السلاح التي تطلق منه، حال دون تحديد سلاح القاتل و من ثم اكتشاف هويته في حالة أنه يملك سلاحا مرخصا به. و لم يمكن سن القانون قبل اليوم -و ربما لن يصدر في المستقبل رغم كل ما حدث- بسبب معارضة جمعية بائعي الأسلحة (NRA) التي تعد من أقوى جماعات الضغط الأمركيية و التي دعمت حملة بوش الانتخابية ضد آل غور لسن القانون بدعوى أنه ينتهك "الحياة الخاصة" لهواة حمل السلاح، حال دون ذلك.

لكن يفترض "سذاجة" أن حياة و أمن الأمريكيين في بلدهم أولى و "أغلى" من أية حقوق أو حريات دستورية يحتمى بها للحفاظ على مصالح و امتيازات مادية و سياسية بحتة. و رغم ذلك لم تتجرأ شبكة تلفزيونية واحدة على إثارة المسألة بسبب ثقل المصالح المالية و السياسية التي يمثلها عرابو شبكة شركات تصنيع الأسلحة و وكلاء الاتجار بها. و نشهد مقابل ذلك "شطارة" القنوات الأمريكية عندما يتعلق الأمر بالدوس على حقوق و حريات و كرامة العرب و المسلمين و مؤسساتهم في أمريكا، إذ يوضع كلهم في "وعاء"

تنظيم القاعدة و "المتطرفين السلفيين"، سواء بتلفيق ارتباط مالي أو "إيديولوجي" أو حتى الشبهة بالآراء و المواقف! و لا أحد تجرأ على ربط "قناص واشنطن" لا من بعيد و لا من قريب بما أفضت إليه هيمنة جماعات الضغط المدافعة عن الحرية المطلقة لامتلاك السلاح الناري على الكونغرس و الإدارة الأمريكية.

غير أن "فاقد الشيء" الذي يتملص من مسؤولية حماية رعاياه فوق أرضهم سيجد مبررات لتوبيخ السلطات الأندونيسية و اليمنية و غيرها من الحكومات في العالم الإسلامي على "التراخي" في مواجهة "الإرهاب الإسلامي" المتهم بدليل أو بدون دليل بالوقوف وراء كل الاعتداءات التي تنفذ ضد المصالح الغربية في أي بقعة في العالم. و أقل ما تثيره ظاهرة التسابق بين الحكومات الغربية لتعيين "القاعدة" طرفا وحيدا مسؤولا عن تفجيرات بالي في أندونيسيا قبل الاطلاع على أي دليل –إن وجد- تساؤلات حول خلفيات و منتهيات وضع عنوان "أسطوري" على أحداث يلفها التعقيد و تداخل المعطيات و الخلفيات. أو ليس التبسيط "الأسطوري" لعناوني "القاعدة و أسامة بن لادن" هو بغرض تحقيق هدف واضح بسهل عملية "الربط الرمزي" بين "الخير و الشر" لتبرير الحرب التي تريد الإدارة الأمريكية خوضها ضد "الرموز" الإسلامية –شخصيات و منظمات و مؤسسات- التي هي "متورطة" مع "عنوان" القاعدة حتى لو ثبت العكس!

و يذكر ما نحن بصدد معايشته اليوم بنظرية "صدام الحضارات" التي أطلعنا بها صامويل هنتنغتون قبل سنوات. إنها عملية تبسيط فظيعة تقودها أمريكا و قد تجر العالم إلى حافة الهاوية!